دروس صامويل هنتنغتون للعرب والمسلمين

منتصر حمادة

«إن للإسلام حدودا دموية»، بهذا التقييم اختزلت العديد من الأقلام العربية والإسلامية جوهر أطروحة **صامويل هنتنغتون** حول «صدام الحضارات» (أو تصادم الحضارات، صراع الحضارات، وغيرها من الترجمات العربية.. يلاحظ أننا لم نتفق فيما بيننا حتى على ترجمة مصطلح لغوي-مفاهيمي !!)

«المفارقة والمعانقة» كتاب لصاحبه الباحث المغربي **إدريس هاني**، مر مرور الكرام عند النقاد المغاربة، ربما، بسبب خوضه المستفيض في ملف «صدام الحضارات» الذي أسيل عليه الكثير من المداد، في ربوع العالم بأسره، وليس فقط في العالم العربي أو الإسلامي، وهو المداد الذي حفل بالغث والسمين بسبب تداخل القراءات النقدية الاختزالية والمركبة والعاطفية والرصينة.. وقد نكون نحن العرب والمسلمين، من أكثر الأقوام التي حررت في الموضوع، ضمن سياق ردود الفعل بطبيعة الحال، وليس الإتيان بالجديد، ربما بحكم أن العالم الإسلامي من وجهة نظرنا كان المعني الأبرز برسالة **هنتنغتون**.

لهذا السبب، يتساءل المؤلف عن السر وراء الاستنفار الكبير الذي تزعمته نخبنا الثقافية والسياسية، أو ما قد نصطلح عليه بالاستنفار الإيديولوجي الذي بزغ إثر صدور مقالة **صامويل هنتنغتون** في مجلة «شؤون خارجية».

وبالطبع، ليس ثمة غير جواب وحيد على هذا التساؤل، مادامت نخبنا المثقفة والسياسية اختارت منحى المعرفة النمطية، وليس إرادة المعرفة، وهي بذلك بالغة الإتقان لفن الانفعال لا لعبة الفعل. لا بل إنها تتقن فن الاقتباس الانفعالي، أي حتى انفعالها مستعارا. وهذا أمر غدا واضحا للجميع. إن نخبنا أصبحت اليوم أقل شأنا من أن تنفعل بله أن تفعل. لقد فضلت إعادة إنتاج التفاعلات التي تجري على غير مسرحها، ولهذا، لا يسعنا إلا أن نزكي حكم المؤلف على دهشة النخب العربية من صدمة «صدام الحضارات» لقد كانت الدهشة سياسية وليست معرفية.

يؤكد المؤلف على أن الخطاب الذي تمثله فكرة صدام الحضارات أو نهاية التاريخ، ليس جديداً على الذهنية الأمريكية. وأن لغة الأسطرة والأماني هي نفسها التي تنتقل من هذا المستوى إلى ذاك، من المنتج الكاهن إلى الخبير الاستراتيجي، ومن المبشر المسياني إلى المفكر السياسي. وهذا معناه ثانية، أن هنتنغتون – وأيضا فوكوياما – تحدث

كأمريكي، لا كصاحب منظور مستقل، ما يؤكد على صراحة هنتنغتون ووضوحه أحياناً، وبغض النظر، إن كان هنتنغتون مستوعباً قديرا للدرس التاريخي أم أنه لم يزل قارئا سيئاً لأحداثه، فإننا نلاحظ قدراً من الصراحة في ما يعلنه. إن التعليل الذي تقدم به واقع في سياق تهيئ للرأي العام الأمريكي خاصة وللغرب عموماً. فهو ليس تحريضا مبنيا على الديماغوجية السهلة- وإن كان المؤلف لا يعصمه من السقوط فيها بين الفينة والأخرى- بل هو رأي مبني على توقع مدروس سعى هنتنغتون من خلاله إلى تقدير ما ستوجهه الولايات المتحدة الأمريكية من تحديات قادمة.

لا تستهدف مناقشة المؤلف لهنتنغتون النتائج التي توصل إليها، ذلك لأنها نتائج متوقعة سلفا. لكن ثمة ما يكشف عنه نص «صدام الحضارات»، وينطق بما لم ينطق به الخبير الأمريكي نفسه. إنه نص متوتر يتقارع فيه الموضوعي بالغائي، حيث تتساكن عنده إرادة الاختلاف بإرادة الاحتواء، ويتهامس داخله هاجس الرهاب (PHOBIA) مع روح الاطمئنان. إن الأمر يتعلق بنص استراتيجي يقرأ الواقع بعين الممكن – المحتمل، لا بعين الواجب الأخلاقي. وفي هكذا أحوال، يكون «الصدام» هو سيد الموقف؛ إذ الصدام الذي يتحدث عنه هنتنغتون ليس صداما منمطا، بل هو صدام مفتوح، وقد يكون العنف والمواجهة العسكرية إحدى أشكاله الممكنة.

الدرس الهنتنغتوني، أو حينما يشهد شاهد من أهلها

لعله من باب الإنصاف أن نعترف لهنتنغتون بنهجه طريقاً واضحاً ولغة تتمتع بلياقة نادرة من الصراحة، وهو أسلوب يعري ويعلن عما ظل خافياً في العادة من قبل صناع القرار الأمريكيين الأوروبيين على السواء. وهو بذلك يقدم خدمة جديرة بالتقدير للعالم الثالث كي ينظر في شروط وإمكانات نهوضه. وأيضا للعالم العربي والإسلامي، رؤية فاضحة للسياسة الأمريكية مفيدة في لم فصامية الموقف. خصوصاً موقف أولئك الذين يتعاملون مع الأحداث من منطلق الدرس السياسي النظري للعلاقات الدولية بصورة آلية تستبعد أبعاد اللعبة، التي لا يجرأ أن يصفها بأنها لعبة إمبريالية محكمة الصنع. وعليه، يمكننا أن نتوقف عند الدرس الهنتنغتوني، وعند ما هو معلن وكاشف في أطروحة صدام الحضارات.

ثمة حقيقتين تميزان مقالة – أو بالأحرى مقالات- **هنتنغتون** بهذا الخصوص. الأولى كونه يعكس وجهة النظر الأمريكية الاستراتيجية، ويعبر عن أهدافها ومصالحها الثانية، كونه يترجم

هذه الأهداف ويعبر عنها بصورة صريحة ومعلنة. وبتوفر هذا النص على هاتين الحقيقتين، التمثيل الرسمي والصراحة المعلنة، يصبح إذ ذاك وثيقة فاضحة للعقل السياسي الأمريكي. ويمكننا صوغ الوثيقة الهنتنغتونية الفاضحة في المحاور التالية:

الدرس الأول: ويتصل بالتصريف الأمني والقانوني للأهداف والمصالح الإقليمية الغربية، فلم يكن القانون الدولي يحظى بقداسة حقيقية من قبل الكبار الذين تواضعوا عليه تحت السحب الرمادية لما بعد الحرب. فاللاعب الأقوى في زمن الحرب لا يجد مناصا من أن يستكمل باقي أشواط اللعبة في أزمنة السلم. وقد ظل الغرب وفي طليعته الولايات المتحدة الأمريكية تخاتل سياسيا وتناور خلف المنتظم الدولي، ماسكة بناصيته ومتفننة في تقنية المخارج في المبادئ والأعراف المنظمة للعلاقات الدولية.

ومن ينكر أن الإدارة الأمريكية غير ملزمة بقرارات الأمم المتحدة؛ لأنها ماسكة بعصب الحياة فيها سواء على مستوى مواردها المتوقفة عليها أو بحسب سلطة الفيتو أو المناورة داخل الأمم المتحدة ومجلس الأمن والهيئات والمؤسسات التجارية الدولية.

الدرس الثاني: ويتعلق ببؤس سياسة التغريب والفصل بين هذه الأخيرة ومطلب التحديث. وهي من أهم الدروس التي يقدمها **هنتنغتون**، ليس للغرب فحسب، بل وأيضا لعموم العالم غير الغربي ولنا كعرب ومسلمين تحديداً. حيث يتحدث هنتنغتون عن ظاهرة البلدان الممزقة، وهي تلك التي لا تزال طور البحث عن هويتها الحضارية. وضرب مثلا عن أبرز نموذج للبلدان الممزقة بتركيا والمكسيك، وعادة ما يرغب زعماؤها في اتباع استراتيجية الانضواء في قافلة العربات، وجعل بلدانهم أعضاء في الغرب، لكن تاريخ هذه البلدان وثقافاتها وتقاليدها ليست غربية. وتركيا هي أبرز وأوضح بلد ممزق، بحسب ما يشير إليه صاحب «صدام الحضارات».

إن الحضارات بما هي هويات ثقافية جذورها أنفذ من أن تقتلع بمجرد إعلان قرار سياسي لنخبة سياسية. ولهذا، يتساءل هنتنغتون حول ما إذا كان من الواجب أن تتخلى المجتمعات الغربية عن حضارتها وتتبنى جوهر الحضارة الغربية؟ فمن حين إلى آخر، يظن بعض زعماء هذه المجتمعات أن ذلك أمر ضروري. وقد صمم **بطرس الكبير ومصطفى كمال أتاتورك** على أن يجعلا مجتمعيهما حديثين. وكانا مقتنعين أن هذا يعني تبني الحضارة الغربية، حتى إلى حد

استبدال غطاء الرأس التقليدي بغطاء الرأس الغربي. ولكنهما خلقا من خلال هذه العملية، بلدين «ممزقين» غير واثقين بهويتهما القومية. كما أن المستوردات الثقافية الغربية لم تساعدهما مساعدة ذات شأن في سعيهما إلى التحديث.

طرح يعزز رأي المؤلف في الفصامية اللائكية المتطرفة، التي ترى في الموروث القيمي والثقافي الغربي طريقا وحيدا ومطلقا للتحديث. إنها الأفكار الفصامية التي لن تؤدي إن هي اكتسبت سلطة وقتية إلا إلى إنتاج ما أسماه هنتنغتون بالبلدان الممزقة. ففي مقابل ذلك، كان **هنتنغتون** يثمن المواقف والسياسات التي – وخلافا لمنحى الدول الممزقة– اختارت منحى التحديث لا التغريب. فالدرس الذي يتحفنا به هنتنغتون، هو أن فصاميتنا تبدأ برؤيتها للتغريب والتحديث بعين الوحدة: إن الحداثة طارئة على الغرب. وإذا أردنا أن نرجع إلى الدرس الفيبري، نقول إنها واردة على نحو مفاجئ وغامض أولا عقلاني. الغرب، وكما يقول هنتنغتون باختصار: «كان غربيا قبل أن يصبح حديثا بزمن طويل».

الدرس الثالث: وله علاقة شديدة بالدرس الثاني، أي فيما يتعلق بكونية النموذج الحضاري الغربي، عندما أوضح هنتنغتون بما فيه الكفاية، أن الحضارة الغربية، وإن بدت منفردة، فهي ليست عالمية. هو منظور «بارادیغمي» للنموذج الحضاري، منظور بنياني. إن تعميم النموذج الغربي بحجة التحديث هو في نظر المحلل الأمريكي خطر زائف «يقوم على الغطرسة وسوء التقدير». حتى لكأن هذا الأخير يرى في التغريب أمرا مستحيلا من الناحية البنيانية. فمجرد انتقال مشروب «الكولا» والأطعمة والألبسة الغربية، لا يعني أن العالم أصبح غربيا.

يدرك هنتنغتون الحجم الطبيعي للحضارة الغربية، عندما يدعوها إلى إعادة بناء نفسها ضمن حدودها الطبيعية، وأن لا تنزع إلى العالمية. ففضلا عن كون العالمية، هي مطلب مستحيل وخطير في آن معا من وجهة نظر النموذج الحضاري، فإن الغرب لم يعد قادرا على تحقيق حلمه الخاطئ ذاك. وإذا تمكن الغرب من نشر بعض من قيمه وثقافته، فذلك راجع إلى انتشار القوة الغربية، (على اعتبار أن الحضارة تتبع القوة).

وليس ثمة طريق آخر لتحقيق هذا الهدف غير ممارسة الإكراه الوحشي: «**إن الإمبريالية هي النتيجة المنطقية الضرورية للنزعة العالمية**»؛ ذلك لأن العالمية لا تتحقق إلا بممارسة العنف. ومن هنا يأتي الدرس الهنتنغتوني للغرب وللعرب، وباقي الحضارات غير الغربية. كون الغرب

أمسى عاجزاً عن تحقيق عالميته. بل ويتعين عليه أن يستوعب هذا العجز على الاحتواء لصالح نزعة الاختلاف.

الدرس الرابع: ويتصل بما يتعين علينا فعله في ضوء هذه المعطيات التي أوردها هنتنغتون. حيث بدا الغرب في حدوده الطبيعية أعجز من أن يقتل فينا إرادة التحرر والانتماء، ولا يزال في آن يناور ضد إنماء الجنوب ونهوضه، إلا أن العجز بدأ ينخر قوى الغرب وقدراته. فثمة معطيات تشكل بؤر ضعف في الكيان الغربي يذكرنا بها **هنتنغتون**، وهي غاية في الأهمية. فالحضارة الغربية اليوم، عكس الحضارات الإمبريالية السابقة، ديمقراطية، مركبة من اتحادات فيدرالية وكونفدراليات، وأنظمة ودول، وعلى الرغم من أن اللاتينية هي الإرث المشترك لدى الغربيين، إلا أن هذه اللغة سرعان ما تفرعت عنها لغات مختلفة ذات خصوصيات شتى. هذه المعطيات هي في الواقع مصدر رهاب مستقبلي في نظر المحلل الغربي، ما يبشر ـ مبدئيا ـ بحتمية تخلي الغرب عن أوهامه. لقد «حان الوقت الذي يجب أن يتخلى الغرب فيه عن وهم العالمية وأن يعزز حضارته وتماسكها وحيويتها في العالم من الحضارات.. ويتوقف مستقبل الغرب إلى حد كبير على وحدته»، والتقييم لهنتنغتون دائما.

تعرية التناقضات الهنتنغتونية

في تقدير المؤلف، يبقى المأزق الذي وقع فيه التحليل الهنتنغتوني ذا شعبتين:

الأولى: كونه يخلط مفهومياً بين الثقافة والحضارة، وهذا الخلط وإن كان تقليداً أمريكياً، إلا أنه يؤدي إلى حالة من التناقض. فمطالب الكيانات الثقافية ليست بالضرورة مطالب حضارية، وأن الممانعة الثقافية لا تعني بالضرورة الممانعة ضد المنتج الحضاري. هذا فضلا عن أن خلطا كهذا بين الثقافة والحضارة قاصر عن توفير الرؤية الجوهرية عن حقيقة الحضارات.

الثانية: أن هنتنغتون يرى الحضارة كموضوع هلامي، أو كفكرة في الأذهان لا تأسيسا في الواقع. وهو لذلك يميز بين الصراعات السياسية والاقتصادية والإيديولوجية، وبين الصراعات ذات المنشأ الحضاري. وكأن الصراع يدور بمعزل عن الأبعاد السياسية والاقتصادية والإيديولوجية. وبلا شك، فإن رؤية كهذه لا تستطيع النفوذ أكثر في صلب الإشكالية؛ لأن الصراع الحضاري دائماً وأبدا، كان يتمظهر في تقاطع المصالح السياسية والاقتصادية؛ ولأن الحضارات، كانت تتدافع خلف واجهات إيديولوجية.

ومع ذلك يشير الكاتب إلى أن الحروب والنزاعات الإيديولوجية والسياسة والاقتصادية تضاعفت واستفحلت عشية انهيار المعسكر الشرقي. وأن سقوط الإيديولوجية الاشتراكية، لا يعني نهائيا أن العالم مجبور على ترك الإيديولوجية رأسا.

ومع أن **هنتنغتون** في النهاية يتحدث عن حتمية الخلاف بين الحضارات، منبها إلى أن أي محاولة لاحتواء الخلاف، تبقى فاشلة بالضرورة، إلا أنه يرى الخلاف بنظرة تشاؤمية في ما يتصل بالأمن القومي الأمريكي والغربي عموما. الخلاف واقع لكنه خطر في آن معا. خصوصا إذا ظلت الحضارات غير مستوعبة لحقيقة التعايش والتكيف مع عالم متعدد الحضارات. وقد يكون هنتنغتون، رغم توجسه ليس ضد الحوار. بل إن الخلاف هو شرط الحوار؛ إذ الحوار لا يتم بين الأشباه والنظائر.

هنتنغتون والملف الأم في الشرق الأوسط

مهم للغاية العروج على وعي هنتنغتون بذلك اللوم الذي يصدر عن العرب والمسلمين تجاه المواقف المزدوجة للسياسة الخارجية الأمريكية، وخاصة بخصوص الصراع العربي – الإسرائيلي، والأهم في هذا الصدد أنه يرى في سياسة الكيل بمكيالين أمرا طبيعيا جدا، في أفق الصدام الطبيعي بين الحضارات.

إن الغرب الذي أنشأ إسرائيل، يبدو اليوم أعجز من أن يواصل احتواءه للعالم، ولقد حان الوقت لكي يتراجع إلى حدوده الطبيعية ويكف عن إقحام أنفه في النزاعات الإقليمية الخارجية، ناهيك عن كون وجود كيان يتيم في قلب محيط حضاري معادي، كل هذا يعزز من بؤس الكيان الإسرائيلي وغموض مستقبله. وهذا يفسر خلفيات تقويض هنتنغتون لمقومين أساسيين لا تقوم بغيرهما إسرائيل:

- إمكانية اندماجها في المنطقة، وهذا مستحيل بمنظور النموذج الحضاري.
- الدعم الغربي، والأمريكي تحديدا، وهذا في طريقه إلى الزوال.

وإن كان **هنتنغتون** لا يقول ذلك صراحة أو حتى تلميحا، فإن مقالاته تنطق بما لم يقصد قوله. وهذا إنما يؤكد على أنه كلما كان التحليل أمريكيا خالصا، إلا ورأى في الدعم الأمريكي لإسرائيل عبثا استراتيجيا. فهل تستوعب إسرائيل الدرس؟ وإذا كان **هنتنغتون** نفسه يؤكد بالتحليل والأرقام، أن الغرب والولايات المتحدة الأمريكية عاجزة اليوم عن ممارسة الاحتواء، فهل يا ترى تضمن إسرائيل استمرار قدرتها على الاحتواء: إن

الحرب الحضارية التي يخوضها العالم العربي والإسلامي ضد إسرائيل تعزز من مواجهته للغرب.

هناك درس أهم من ذلك يقدمه هنتنغتون لإسرائيل. وهو أن بناء الغرب يتطلب قدرا من رأب المواقف الأوروبية التي باتت تمثل منفذا للاختراق. وعلى الرغم من أن هنتنغتون - وهو يمثل المنزع الأمريكي - يستهين بالسياسات الأوروبية الناشزة، حيث يراها سياسات غير استراتيجية، لا لشيء إلا لأنها أحيانا تغرد خارج السرب.

النص الهنتنغتوني كنتاج أمريكي تقليدي

إن ما يصفه **هنتنغتون** بصراع الحضارات، يكشف عن أن الوجه الحضاري هو هذه الميكيافيلية السياسية التي ترى في حق الآخر في الانبعاث والإنماء خطرا محدقا على الأمن القومي الأمريكي. فإنماء العرب وإنماء الجنوب، هو قضية أمنية في حسابات الاستراتيجية الأمريكية.

إن النص الهنتنغتوني يعكس ظاهرة المنتج الأمريكي التقليدي، أي تقديم الغرب بوصفه معزول ومنغلق زاد هنتنغتون في إمعان عزلته. وهو في النهاية يرسم ملامح حضارة ممزقة، لا يجمع بينها سوى المصالح. وزمن العولمة الذي أطل علينا بعلامات جديدة، يؤكد على أن المستقبل هو لحضارات تنزع إلى ما فوق الهويات، أي حضارة تحمي الخلاف وتتعالى على موضوعاته.